البعث والقيامة الكبرى

قال المؤلف-رحمه الله تعالى-:

(إِلَى أَنْ تَقُومَ الْقِيَامَةُ الْكُبْرى، فَتُعَادُ الأَرْوَاحُ إِلَى الأَجْسَادِ، وَتَقُومُ الْقِيَامَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ، فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً).

(الشرح)

قوله: (تَقُومَ الْقِيَامَةُ): سميت القيامة بهذا الاسم لأسباب:

- قيل: لقيام الناس من قبورهم، قال الله تعالى: {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [المطففين: ٦].
- وقيل: لقيام العدل، {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [الأنبياء: ٤٧].
- وقيل: لقيام الأشهاد {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غافر: ٥١].

فهذه ثلاثة أسباب ثلاثة لتسمية القيامة بهذا الاسم، ولا مانع من اجتماعها لعدم التعارض.

قوله: (الْكُبْرى): والله إنها لكبرى! أمرٌ مهول! أمرٌ عظيم! حدثٌ جلل! سبحان الله! هذه الدنيا التي انقضت وطويت صفحاتها، ستعقبها دار أخرى؛ يفنى كل من عليها، كما قال ربنا -عز وجل-: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ} [الرحمن: ٢٦]، وقال نبينا، صلى الله عليه وسلم: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ التَقَمَ القَرْنَ وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ»[١].

ثم يطوي الله السماوات بيمينه، ويقبض الأرضين، كما قال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [الزمر: ٦٧]، وفي المتفق عليه، من حديث أبي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (يَقْبِضُ اللَّهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ)[٢]، وفي صحيح مسلم، عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَطْوِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ. ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟)[٣].

---

[١] أخرجه الترمذي: رقم (٢٤٣١) واللفظ له، وأحمد: رقم (١١٠٣٩) والحاكم في المستدرك: رقم (٨٦٧٨).

قال الترمذي: هذا حديث حسن روي من غير وجه. وقال الحاكم: ولولا أن أبا يحيى التيمي على الطريق لحكمت للحديث بالصحة، على شرط الشيخين، رضي الله عنهما.

[٢] أخرجه البخاري: رقم (٤٨١٢)، ومسلم: رقم (٢٧٨٧).

[٣] أخرجه مسلم: رقم (٢٧٨٨).

يجري الله تغييرات كونية؛ فلكية، وأرضية؛ فتُبدل الأرض غير الأرض والسماوات، كما قال تعالى: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} [إبراهيم: ٤٨]، فتمد هذه الأرض الكُريّة مدّ الأديم، فتصبح مبسوطة ممهدة مستوية، لم يُسفك عليها دم، ليس فيها معلم لأحد؛ لا جبل يُرتقى، ولا واد يُهبط، ولا كهف يُكنّ، قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا} [طه: ١٠٥ -١٠٧].

هكذا تبدو الأرض، قبل أن ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية، فإذا نُفخ في الصور حصلت القيامة الكبرى، وقام الناس من قبورهم لرب العالمين، في مشهد مهيب، وموكب عجيب، قال تعالى: {ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} [الزمر: ٦٨]، وقال: {يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦)خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨)} [القمر: ٧ - ٩]، يمشون، ويجرون، ويلهثون، أمامهم من يقودهم، وخلفهم من يسوقهم، موجهون إلى أرض المحشر، في مشهد كمشهد الجراد حين يغطي مساحات شاسعة من الأرض! هكذا الناس يوم القيامة يبعثون من قبورهم على اختلاف أحجامهم وأطوالهم وألوانهم؛ منهم من كأبينا آدم ستون ذراعًا في السماء، ومنهم من هم في طولنا؛ فمهما سرّحت الخيال فلن تبلغ تصور الحال، فالأمر جلل؛ لا يمكن إدراك تفاصيله، لكنه مروع مخيف. لكن الله يُنزل سكينته على المؤمنين {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} [فصلت: ٣٠]، أما الكافرون، فقد وصف الله حالهم وحكى مقالهم: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا} [يس: ٥١، ٥٢]، والنسلان: هو الإسراع في المشي؛ فهم يتساءلون بدهشة حينما يفيقون ويقومون من قبورهم، فإما أن يجيبهم المؤمنون، أو تجيبهم الملائكة تبكيتًا لهم: {هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ} [يس: ٥٢، ٥٣].

هنا يبتدئ فصل جديد، وهو الإيمان بالقيامة، وهو الإيمان بما يكون بعد البعث من حوادث عظام؛ فلا يتم إيمان امرئ باليوم الآخر حتى يؤمن بالبعث، قال تعالى: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي} [التغابن: ٧]، وهذا أحد مواضع ثلاث يؤمر فيها النبي صلى، الله عليه وسلم، أن يقسم بربه بهذه الصيغة.

وأما التغييرات السماوية، فكثيرة متنوعة، كما وصف تعالى: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ} [التكوير: ١، ٢]، {إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ} [الانفطار: ١،

٢]، {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ} [الانشقاق: ١، ٢]، وقال تعالى: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا} [الفرقان: ٢٥].

وجاء في بعض الآثار أن كل سماء تنشق، فينزل ملائكتها فيحيطون بأهل الأرض إحاطة السوار بالمعصم، ثم ينزل ملائكة السماء التي تليها فيحيطون بمن قبلهم إحاطة السوار بالمعصم، وهكذا، كل ذلك إرهاص ومقدمة لنزول الرب-سبحانه وتعالى-ومجيئه لفصل القضاء بين عباده، في عرصات القيامة، حيث يبلغهم الداعي، وينفذهم البصر، قال تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} [الرحمن: ٣٣]، وأنى لهم!

فيجب الإيمان بالبعث الجثماني؛ فمن تفرق لحمه في بطون السباع، أو في حواصل الطير، أو في أجواف الحيتان، والذي احترق وصار رماداً، فإن الله يجمع أجزاءه، ويعيده خلقًا جديدًا، فعَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ذَكَرَ رَجُلًا فِيمَنْ كَانَ سَلَفَ، أَوْ قَبْلَكُمْ، آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَوَلَدًا -يَعْنِي أَعْطَاهُ -قَالَ: فَلَمَّا حُضِرَ قَالَ لِبَنِيهِ: أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرَ أَبٍ، قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَبْتَئِرْ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا -فَسَّرَهَا قَتَادَةُ: لَمْ يَدَّخِرْ -وَإِنْ يَقْدِرْ عَلَى اللَّهِ يُعَذِّبْهُ، فَانْظُرُوا فَإِذَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، حَتَّى إِذَا صِرْتُ فَحْمًا فَاسْحَقُونِي -أَوْ قَالَ: فَاسْهَكُونِي -ثُمَّ إِذَا كَانَ رِيحٌ عَاصِفٌ فَأَذْرُونِي فِيهَا، فَأَخَذَ مَوَاثِيقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ -وَرَبِّي -فَفَعَلُوا، فَقَالَ اللَّهُ: كُنْ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ، ثُمَّ قَالَ: أَيْ عَبْدِي مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ؟ قَالَ: مَخَافَتُكَ -أَوْ فَرَقٌ مِنْكَ -فَمَا تَلَافَاهُ أَنْ رَحِمَهُ اللَّهُ)[1].

وقد كان هذا الأمر مستبعداً عند مشركي العرب، لكن الله لم يزل يقيم عليهم الحجج العقلية والحسية، على إثباته، كقوله تعالى: {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} [ق: ٩ - ١١]، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم: ٢٧]، فالقادر على الخلق قادر على إعادته، بل هو أهون عليه، ببداهة العقول، لأنه على مثالٍ سابق.

ولا يجوز معارضته بالدعاوى المجردة، كما يفعل منكرو البعث؛ من الملاحدة، من الفلاسفة الدهرية، أو ما يدعيه الكفرة؛ من الهنادكة، والبوذيين، القائلين بتناسخ الأرواح، المنكرين للبعث الجثماني.

قوله: (فَتُعَادُ الأَرْوَاحُ إِلَى الأَجْسَادِ): ينفخ إسرافيل في الصور، فتعود كل نَسمة إلى البدن الذي كانت تعمره في الدنيا، فتدب فيه الروح والحياة من جديد!

---

[1] أخرجه البخاري: رقم (٦٤٨٠)، ومسلم: رقم (٢٧٥٦).

قوله: (وَتَقُومُ الْقِيَامَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ): في هذا إشارة إلى دلائل إثبات البعث، وهي: الكتاب والسنة والإجماع؛ فأدلة الكتاب والسنة متواترة، متكاثرة، وانعقد إجماع المسلمين على ذلك؛ فمن أنكره فقد أنكر أصلًا من أصول الإيمان، معلومًا من الدين بالضرورة.

أما الزنادقة فيدّعون أن ما أخبر به الأنبياء ضرب من التخييل والتخويف لأجل ضبط الناس، وإلا ليس ثم شيء من ذلك في الحقيقة! وهم الذين يسميهم شيخ الإسلام "أهل التخييل"، وهم زنادقة، باطنية، ملاحدة؛ ينكرون المعاد، ويشبههم في هذا الزمان من يسمون "الملاحدة الجدد"، وهي حركة ناشئة، منذ بضعة عقود، تجتاح العالم، ينكرون الخالق، والمعاد، وحقائق الإيمان؛ فيجب على أهل الإسلام التصدي لهم، والتنبه لما يصل من شبهاتهم الكفرية، عبر وسائل الإعلام المختلفة.

قوله: (فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً): بين النبي، صلى الله عليه وسلم، صفة حشرهم، في حديث عائشة – رضي الله عنها–فقال: (يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا)[١]، وفي رواية (بُهمًا)[٢]؛ حفاة: غير منتعلين، عراة: غير مكتسين، غرلًا: غير مختونين؛ قال تعالى: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} [الأنبياء: ١٠٤]، بُهمًا: أي ليس معهم شيء؛ يحشرون كما ولدتهم أمهاتهم؛ قال تعالى: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ} [الأنعام: ٩٤]، حتى أن عائشة – رضي الله عنها – لما حدّث النبي، صلى الله عليه وسلم، بهذا الحديث قالت: يَا رَسُولَ اللهِ النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا، يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَقَالَ: (يَا عَائِشَةُ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ)[٣]. تأملوا أول شيء تبادر إلى ذهنها، رضي الله عنها؟ الحياء والستر والحشمة، قبل أن تفكر في هول الموقف! خلافًا لمن انتكست فطرتها فطفقت تكشف سوأتها أمام الرجال؛ فبين لها، صلى الله عليه وسلم، أن الأمر أعظم من النظر؛ فلا يأبهون لهذا، ولا يفكرون فيه، أحدهم لا يدري أين ينتهي به الحال؛ إلى جنةٍ أو نار؛ فالأمر جد عظيم.

---

[١] أخرجه البخاري: رقم (٦٥٢٧) مسلم: رقم (٢٨٥٩) واللفظ له.

[٢]) أخرجه أحمد رقم: (١٦٠٤٢).

[٣] أخرجه البخاري: رقم (٦٥٢٧)، ومسلم: رقم (٢٨٥٩).

قال المؤلف –رحمه الله تعالى–:

(وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ، وَيُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ، فَتُنْصَبُ الْمَوَازِينُ، فَتُوزَنُ بِهَا أَعْمَالُ الْعِبَادِ، {فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣)}. وَتُنْشَرُ الدَّوَاوِينُ، وَهِيَ صَحَائِفُ الأَعْمَالِ، فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِنْ وَّرَاءِ ظَهْرِهِ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتعالى: {وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)}).

(الشرح)

يوم القيامة يومٌ طويل، تجري فيه أحداثٌ عظيمة متتابعة، لا يمكن حصرها، أشار المؤلف –رحمه الله–إلى أهمها:

١–دنو الشمس من العباد، وإلجامهم العرق: عن الْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: (تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ) –قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ؟ أَمَسَافَةَ الْأَرْضِ، أَمِ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ –قَالَ: (فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا) قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ)[1].

وهذا من الأمور الغيبية التي يجب قبولها والتصديق بها، وعدم إخضاعها للمقاييس المادية؛ فلا يسوغُ أن يقول قائل: هذا لا يتفق مع الحقائق الفيزيائية؛ "نظرية الأواني المستطرقة"، التي تقضي بمنسوب واحد للماء على سطح واحد! كل هذه الاعتراضات يجب أن تُطّرح، ولا تعارض بها النصوص القطعية الثابتة؛ فالله الذي ركب دار الدنيا على سنن معينة، يجري سننه في دار البرزخ كيف يشاء.

٢–نصبُ الموازين: الموازين جمع ميزان، وهو ما تُوزنُ به الأعمال. قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [الأنبياء: ٤٧]، **واختلف في الموزون، فقيل:**

– **صحائف الأعمال،** ودليل ذلك حديث البطاقة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ

(١) أخرجه مسلم: رقم (٢٨٦٤).

عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ "، قَالَ: «فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ»[1]، وهذا الحديث، فوق ما يدل عليه من فضل التوحيد، وتكفيره للذنوب، فإنه يدل على أن الذي يوزن صحائف الأعمال.

- **العامل نفسه**: لحديث ابْنِ مَسْعُودٍ، رضي الله عنه، أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الْأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مِمَّ تَضْحَكُونَ؟) قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ)[2].

- **الأعمال**؛ قال تعالى: {فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣)} [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣]، وقال: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة: ٧، ٨]؛ فهذه النصوص تدُل على أن الذي يُوزن هو العمل.

ولا تعارض! فكل هذه الثلاث تُوزن، لكن العبرة بوزن الأعمال. وإنما يزن الله العامل لإظهار فضله، أو لإظهار خزيه، فقد جاء في الحديث (إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَقَالَ: اقْرَءُوا، {فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْنًا} [الكهف: ١٠٥])[3].

وهل الموازين متعددة أم هو ميزان واحد؟ يحتمل؛ فلفظ الجمع في قوله: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ}، الموازين يدل على التعدد، لكن ربما تعددت باعتبار الموزونات.

ومما يجب اعتقاده أن الميزان حقيقي؛ له لسان وكِفّتان، لا كما تدعيه المعتزلة أن المقصود بالميزان: إقامة العدل. ونقول: بل المقصود بالميزان: إقامة العدل بواسطة الميزان الحقيقي الذي أخبر الله تعالى به وأخبر به النبي -صلى الله عليه وسلم-.

٣-نشر الدواوين: الدواوين جمع ديوان، وهي كلمةٌ فارسية، تعني الجامع للشيء، كما يقال: ديوان الجند، ديوان الموظفين، ديوان المظالم، أي الجامع للشيء المحيط به، والمراد بها: صحائف الأعمال، ودليل ذلك قول الله عز وجل: {وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

---

[1] أخرجه الترمذي: رقم (٢٦٣٩) واللفظ له، وابن ماجه: رقم (٤٣٠٠)، وأحمد: رقم (٦٩٩٤)، وابن حبان في صحيحه: رقم (٢٢٥)، والحاكم في المستدرك (٩)، وقال عقبه: هذا حديث صحيح لم يُخَرِّجْ في الصحيحين، وهو صحيح على شرط مسلم.

[2] أخرجه أحمد: رقم (٣٩٩١)، وابن حبان في صحيحه: رقم (٧٠٦٩).

[3] أخرجه البخاري: رقم (٤٧٢٩)، ومسلم: رقم (٢٧٨٥).

كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)} [الإسراء: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: {وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف:٤٩].

قوله: {وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ}، طائره: أي ما طار من عمله، لأن العمل الذي يصدرُ منك، والقول الذي يبدر منك، كالطائر الذي أفات منك، لا يمكنك رده، فلذلك سُمي طائرًا.

قوله: {فِي عُنُقِهِ}: أوثق ما يكون مع الإنسان ما ربط بعنقه، لأنه لا يذهب إلا بذهاب عنقه، بخلاف ما لو ربطته بيدك، أو برجلك، أو غير ذلك من بدنك.

قوله: {وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا}: هذا الكتاب مستنسخ مما كان قد عمله في الدنيا. {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجاثية: ٢٩].

قوله: {يَلْقَاهُ مَنشُورًا}: ملقًى غير بعيد، مفتوحًا غير مغلق؛ فكل شيء موثق بالبينات والدلائل؛ ولهذا إذا اطّلع على كتابه تصيبه صدمة، كما وصف تعالى: {وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} [الكهف: ٤٩]. حتى إن الأمر يبلغ بالكافر إلى اتهام، وتخوين الملائكة الكرام، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَحِكَ، فَقَالَ: (هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟) قَالَ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: (مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ)[1]، والمقصود أن الله يقيم عليه الحجة.

قوله: (آخذٌ كتابهُ بيمينه، وآخذٌ كتابه بشماله، أو من وراء ظهره): هكذا نوّع المؤلف؛ بشماله أو من وراء ظهره، لورود ذلك في القرآن على صفتين، ففي سورة الحاقة: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ} [الحاقة: ٢٥]، وفي سورة الانشقاق: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ} [الانشقاق: ١٠]، وبعض العلماء سلك مسلك الجمع وقال: إنه يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره؛ بمعنى أن تلوى شماله ويُعطى كتابه من وراء ظهره، وظاهر كلام الشيخ أنه تارةً يُعطاه بشماله، وتارةً من وراء ظهره، وكلا الصورتين تدل على التبكيت، والترذيل، والتحقير؛ لأن الأصل في التناول والإعطاء اليمين؛ فالذين يؤتون كُتبَهم بأيمانهم هم أصحاب اليمين، والذين يؤتون كُتبهم بشمائلهم هم أصحاب الشمال، كما سماهم الله في كتابه.

---

[1] أخرجه مسلم: رقم (٢٩٦٩).